

نصيحتي إلى أهل المعروف من أطباء وممرضين ومن هم على الدنيا ضيوف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير من تلقى ألوان القضاء بالرضى والمسرات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تفرّد بالمنع والعطاء والمكرّمات، وأشهد أن سيّدنا محمداً عبده ورسوله سيّد السادات، ومظهر الخيرات والمبرات والمفراحات.

وبعد؛ فإنّ مما خيّم على هذه الأمة من مآسي الوباء، وشدّته والأواء ليحتم على من ذاق طعم الإيمان أن يكون عوناً لطائفيّاً على رفع تلك العمة عن أهل البلاء تخفيفاً بقدر ما أُوتِيَ من إمكانيات، مُستعيناً بالله تعالى، سائلاً إياه هدايته إلى أيسر السبل الجابرة للخاطر، الناشرة للحو العاطر.

هذا؛ وإنّ الواقع المفروض على الناس اليوم هو ذلك الانتشار الذي ولّد الدعر في القلوب، وضيق الحناق على الصدور خوفاً من الهبوب، وجعل الناس يتلقّون بمنّةً وشمالاً تلقت الحيران، فباء بالفشل في التعامل من نقص إيمانه، وظهر جهله، وظنّ أنّه مالك روحه أو روح غيره لا يُخرجها سواه، فظهر على بعض الأطباء والممرضين لحظات استقبال المريض _ هذا إذا أقبلوا على خدمته _ ما اصطُلح عليه بالتئم الذي يكسر الخواطر ويمنع السبل إلى كلِّ عملٍ جابرٍ لكسر المريض بما يُبدد مناعته المعنوية، ويُشعره بالعزّة بين أهل الاختصاص والهمة الحسيّة، وقد ظنّ قبلاً أنّه مُقبلٌ على من سيكون سبب شفائه، ومدخل عافيته، إذا به يُفاجأ بجفوة ومجود، وفحشٍ ورُقود، مُندفعاً اندفاعاً مُعاكساً فراراً من العيب الذي لم يُكشف سرّه، ولم تظهر بعد حقيقته. هذا مع العلم بأنّ التحرير المُطلق لمعرفة جوهر المرّض إلى الآن مجهول وتحديد ضابطه غير معلوم.

نعم ! على الرّغم من التعليمات الاحترازية، والتوجيهات الطبيّة، والتطبيقات المسلكيّة التي لا ينكرها عاقل من لبس الواقيات، واستعمال المعقّمات أخذاً بالأسباب _ لكنّ للأسف _ دون توكلٍ على خالقها أو مُراقبة لبيانه الجليل أنّه فعّال لما يُريد.

ألّق السّمع معي إلى هذه الحادثة المؤلمة؛ يُسَعف مريضٌ إلى مشفى، ومُجرّد النظر إليه يظهر التئم لظنّ أنّه الوباء، فينتشر الجميع انتشاراً مُعاكساً دون أدنى شعورٍ بالمسؤولية تاركين المريض دون إسعافٍ فضلاً عن التشخيص الضّروريّ الحاسم إلى أن أقبل من حرّكته مشاعره الإيمانية، وأيقظ ضميره

الإنسائي، وأَحْيَتْ قَلْبَهُ مُرْوَعُهُ السَّلِيمَةَ، فَشَخَّصَ الْحَالَةَ لِيَكْتَشِفَ بُعْدَهُ عَنِ الْوَبَاءِ بُعْدَ السَّمَاءِ عَنِ الْأَرْضِ.

أجل ! ولولا لطفُ الله تعالى هَلَكَ المريضُ وحَمَلَ الجميعُ إثمَهُ.

أقول يا سادة ! إِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ الْمَوْتُ، وَأَنَّ الْأَجَلَ مَحْتُومٌ مَحْسُومٌ فِي بَيَانِ اللَّهِ تَعَالَى الْقَدِيمِ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وَأَنَّ الْعَمَلَ بِالْأَسْبَابِ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِحْكَامِ لِتَطْبِيقِ الْأَحْكَامِ ائْتِمَارًا بِأَمْرِ رَبِّ الْأَنَامِ، وَأَنَّ الْقَضِيَّةَ قَضِيَّةً ابْتِلَاءً وَاخْتِبَارًا كَمَا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

فيا أيها الأطباء ! يا أيها الممرضون ! أنتم أعرفُ الناسِ بِحَاجَةِ الْمَرِيضِ إِلَى الْمَنَاعَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ عَبْرَ إِجَادِ الْأَمَلِ فِي كِيَانِهِ لِإِخْرَاجِهِ مِنْ مَحْنَتِهِ بِهَمَّةٍ وَعَزِيمَةٍ تُضَعِّفُ لَدَيْهِ الدَّاءَ وَتُعِينُهُ عَلَى تَجْرِعِ الدَّوَاءِ، لِتَيْسَّرَ عَلَى الطَّبِيبِ وَالْمُرْمِضِ سَبِيلَ الْوَصُولِ إِلَى الْمُرَادِ الْمَأْمُولِ مِنْ ضَمَانِ الْعَافِيَةِ وَالشِّفَاءِ لِلْجَمِيعِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

ودونك هذا الشاهد الذي بدأ بالمرضِ وانتهى بالعافية

يُحْمَلُ مَرِيضٌ إِلَى عِيَادَةِ طَبِيبٍ جَاحِدٍ قَلِيلِ الْإِيمَانِ مَخْجُوبٍ عَنِ مُرَاقَبَةِ الدِّيَانِ، فَيَمْنَعُهُ مِنَ الدَّخُولِ مُعْلِنًا أَنَّهُ مَوْبُوءٌ يَحْمِلُ الْمَرَضَ، فَيَتَحَوَّلُ أَهْلُهُ إِلَى طَبِيبٍ آخَرَ بِنَفْسِ الْاِخْتِصَاصِ لَكِنَّ الْفَرْقَ أَنَّ هَذَا الْأَخِيرَ ذُو عَقِيدَةٍ سَلِيمَةٍ وَدِرَايَةٍ طَبِيبِيَّةٍ وَاسِعَةٍ وَحُكْمَةٍ فِي الْعِيَادَةِ شَامِلَةٍ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِاخْتِرَازَاتِهِ الطَّبِيبِيَّةِ الْمَطْلُوبَةِ طَبَأً وَشَرَعًا، ثُمَّ أَعَانَ عَلَى حَمْلِهِ فَوَضَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ يَفْحَصُهُ وَيُدَقِّقُ فِي فَحْصِهِ حَتَّى ثَبَتَ أَنَّ مَسَارَ الشِّفَاءِ هَيِّئٌ لِيَنْ مِّنَ الْيُسْرِ بِمَكَانٍ.

يقول هذا الطبيبُ الموفِّقُ: وَاللَّهِ لَقَدْ دَخَلَ عَلَيَّ مَحْمُولًا ظَانًا أَنَّهُ الْأَجَلُ، وَخَرَجَ فِي عَافِيَةٍ وَهَمَّةٍ وَأَمَلٍ شَاكِرًا لِأَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى كَأَمَّا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ، كُلُّ ذَلِكَ بِتَطْبِيقِ سُنَّةِ الْحَبِيبِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَمَرْنَا أَنْ نُنْفَسَ عَنِ أَجْلِ الْمَرِيضِ تَطْبِيبًا لِخَاطِرِهِ، وَأَنْ لَا نُنْصَبَ أَنْفُسَنَا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَأَنَّ التَّوْبَاقَ بِمَلِكِنَا لَا بِمَلِكِ سِوَانَا، نَتَصَرَّفُ فِي الْعِبَادِ تَصَرَّفَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ فِي عَقْلَةٍ عَنِ حَتْمِيَّةِ الْأَقْدَارِ غَافِلِينَ أَوْ مُتَغَافِلِينَ عَنِ الْمُتَصَرَّفِ الْحَقِّ الْفَعَالِ لَمَّا يُرِيدُ مُتَجَرِّبِينَ عَلَى حُكْمِهِ وَحُكْمَتِهِ جَاهِلِينَ أَوْ مُتَجَاهِلِينَ أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يَتَّبَعُ الْمَعْلُومَ، وَأَنَّ الْمَعْلُومَ إِنَّمَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي أَبْدَعَ عَلَيْهَا الْمَكُونَاتِ لَذَا قَالَ أَحَدُ الْعَارِفِينَ:

[عجبت لطبيب لا يؤمن بالله]

أجل! لأن الإعجاز الذي يَمُرُّ عليه الطبيب وهو يَجُولُ في كيان المريض، ويتقلَّب في كونه المُعْجِزَةَ المتجددة كَفَيْلٌ في اعترافه بعبوديته لمولاه.

وهنا يَكْمُنُ القَوْلُ الفَصْلُ يا أيها السادة! بَأَنَّ المِيعَارَ في هذا هو المِيزَانُ ولا مِيعَارَ على الدِّقَّةِ إلا في تعاليم مَنْ لا يَنْطِقُ عن الهوى صلى الله عليه وسلم الذي عَلَّمَ كيف تكون عيادة المريض والسبيل اللطيف لمخاطبته.

أصغ معي إلى هذا الحديث المُزَكِّي الذي أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى مَرِيضٍ فَنَفْسُوا لَهُ فِي أَجَلِهِ بِطَوْلِ العَمْرِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ شَيْعًا وَيُطَيِّبُ نَفْسَهُ﴾**

قال العلماء: ومن ثم فقد عَدُّوا في آداب العيادة تَشْجِيعَ العليلِ بلطيفِ المَقَالِ وحُسنِ الحال. ويقولُ له: كما قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: **﴿لَا بَأْسَ طَهُورًا إِنْ شَاءَ اللهُ﴾** كما في البخاري هذا؛ وجميلٌ أَنْ يُنْفَسَ له قبل المعاينة بقول النبي صلى اللهُ عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان: **﴿مَا يُصِيبُ المَسلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يَشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ﴾**

لذا مِنَ الصَّرُورِيِّ تَنْشِيطُ هِمَّتِهِ مِنْ أَجْلِ الصَّبْرِ على قِضَاءِ اللهُ تعالى بِلُطْفٍ وَلِينٍ كِي لا يَضْحَرَ وَيَجْدَعُ، وإعلامه بأنَّ صَبْرَهُ وتَسْلِيمَهُ اللهُ تعالى أُنْجِعُ الأَدْوَاءَ لِتَعْجِيلِ الشِّفَاءِ ذلك أَنَّ راحة القلب تُورثُ راحة الجسد، هذا؛ وَمِنَ المُسْتَحْسِنِ أَنْ يُقْصَّ عليه من الطرائفِ عن مَرْضَى عافاهم اللهُ تعالى بسببِ ذلك ما يَدْفَعُهُ إلى الطَّمَعِ بِرحمةِ اللهُ تعالى وعافيتِهِ ويسَّعُ عنده دائرة الأملِ بالشفاء.

أيها الأُحِبَّة! إِيَّاكُمْ والتَّنَمُّرُ فَإِنَّ اللهُ غَيُورٌ، إِيَّاكُمْ والاستكبارَ فَإِنَّ اللهُ تعالى مُنْتَقِمٌ جَبَّارٌ، اِحْرِصُوا على جَبْرِ خَاطِرِ المَريضِ لِعَوْنِهِ على الشِّفَاءِ الذي أَنْتُمْ أَحْوَجُ ما تَكُونُونَ إليه في أَيِّ لحظةٍ مِنْ لَحَظَاتِ الحِياةِ ذلك أَنَّهُ سبحانه هو الشافي، وهو المحيي والمُمِيتُ بيده الخير وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

أيها الأُحِبَّة؛ اعلموا أَنَّ المروءةَ هي الإنسانيَّةُ، والإنسانيَّةُ هي الترجمةُ لحقيقةِ بيانِ اللهُ تعالى القائل: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** قَلْبًا وَقَالِبًا، حِسًّا وَمَعْنَى، لذلك مِنْ هنا قالوا إِنَّهُ لَنْ تَتَّكَمَلَ إنْسانِيَّةُ العبدِ ما لم تَتَوَقَّفْ فيه كمالاُت المكارمِ والتي مِنْ أَهْمِّهَا وَأَخْطَرِهَا سلامَةُ العقيدةِ مِنَ الدَّاخلِ

القلبي المترجمة بقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿واعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك﴾

نعم أيها الأحبة ! مع الأخذ بكامل الأسباب الواقية للطرفين والعون على تحقيق العافية بين الطبيب والمريض على الحسن والمعنى.

والتي منها؛ الرُّفْقُ واللِّينُ واللُّطْفُ والرَّحْمَةُ في التَّعَامُلِ لِيَضْمَنَ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ كَمَا وَرَدَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ﴾ ﴿إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ﴾

ومنها؛ التواضع والبعد عن الاستكبار وذلك لإيناس المريض وعدم تنفيره كي يضمن دخول الجنة ذلك أنَّ المُسْتَكْبِرَ هو من أهل النار ففي الصحيح: ﴿لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبَرٍ﴾ ثُمَّ عَرَّفَ الْكِبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمْطُ النَّاسِ﴾؛

فَبَطْرُ الْحَقِّ؛ دَفْعُهُ وَرُدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ، وَعَمْطُ النَّاسِ؛ احْتِقَائُهُمْ.

أقول: وهذا ما يقع فيه الكثير من ذوي الطبقات الثقافية والاختصاصية قبل غيرهم، والعلة في ذلك كاميئة في العفلة عن مراقبة المتكبر الحق تبارك وتعالى الذي تفرَّد بهذا الاسم الجليل الذي لا يليق بسواه.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: إنَّ حَقِيقَةَ الْكِبَرِ_أَيِ الَّذِي يَصْطَنِعُهُ الْإِنْسَانُ_ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ فَوْقَ غَيْرِهِ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَيَحْصُلُ مِنْهُ نَفْحَةٌ أَوْ هَرَّةٌ، ثُمَّ هَذِهِ النَّفْحَةُ يَصْدُرُ مِنْهَا أَفْعَالٌ عَلَى الظَّاهِرِ كَالْتَرَفُّعِ فِي الْمَجَالِسِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الطَّرِيقِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَأْتَفَ إِذَا وُعِظَ، وَيُعْتَفَ إِذَا وَعِظَ وَعَلَّمَ، وَيَجْحَدَ الْحَقَّ إِذَا نَظَرَ.

وعليه؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَرِيضِ بِمِلَاطَةِ النَّفْسِ، وَتَطْيِيبِ الْقَلْبِ كَأَخِ عَزِيزٍ يَعْنِيهِ شِفَاؤُهُ، وَيَسْرُهُ أَنْ يَرَى عَلَيْهِ آثَارَ عَافِيَتِهِ.

ومنها؛ حِرْصُهُ عَلَى تَعْجِيلِ الشِّفَاءِ لِلْمَرِيضِ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ إِمْكَانَاتِ طِبِّيَّةٍ بِقَصْدِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُشْعِراً إِيَّاهُ أَنَّهُ سَبَبُ عَوْنِ اللَّهِ لَهُ كَمَا قَالَ مَنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الصَّحِيحِ: ﴿فَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ﴾ لَذَا فَالْفَضْلُ فِي الْأَصْلِ لَهُ، وَهَذَا مَا يَشْحَدُ هِمَّةَ الْمَرِيضِ بِالْمَنْعَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي إِذَا سَرَتْ فِي كِيَانِهِ كَانَتْ مِنْ أَهَمِّ مَفَاتِيحِ الشِّفَاءِ وَمَطْوِيِّ الزَّمَانِ فِي تَعْجِيلِهِ.

ختاماً؛ يا مَنْ مَصَائِرِكُمْ بِيَدِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ عَامِلُوا اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ تَجِدُوا نِتَاجَ لُطْفِهِ فِي أَيَّعِ الثَّمَرِ
وأبهى مظاهر العافية.

جعلني الله تعالى وإياكم من أهل الذكر والتذكير والبشارة والمبشرين والمبشرين من عليائه سبحانه
القائل: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ*الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ
الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

وصلى الله على مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَنحِرْ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وكتب
الفقيه إلى ربه الغني محمد الفحام

